

الساكن والفضاء السكني علاقة حميمية

مقاربة أنثروبولوجية

The inhabitant and the residential space intimate relationship Anthropological approach

د. سوالمية نورية - جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر (قسم علم الاجتماع -
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية).

soualmia.nouria@yahoo.fr

د. بووشمة الهادي - المركز الجامعي الحاج موسى أق أخموك بتامنغست (قسم علم
الاجتماع - معهد العلوم الانسانية والاجتماعية).

elhadibououchma@gmail.com

تاريخ الإرسال 2018/08/03 - تاريخ القبول 2018/09/09 - تاريخ النشر 2018/11/29

مَجَلَّةُ الْبَحْثِ

من منظور أنثروبولوجيا الرمز والمخيال حاولنا ضمن حيثيات هذا البحث التطرق
لثنائيتي الساكن والفضاء السكني مركزين في ذلك على مسألة العلاقة بينهما، فالسكن مثلما
نسكنه ونشغله فهو أيضا يسكننا ويشغلنا، ولذلك فالعلاقة هنا هي مسألة تساكُن وحميمية،
ولأجل تفصيل هذه العلاقة حاولنا مقارنة الموضوع من خمسة زوايا للنظر، بدايتها كانت
بمحاولة التأسيس الأنثروبولوجي للسكن والحميمية من حيث المعطى الرمزي والمخيالي،
بعدها كان التوقف عند تحديد المعنى الذي يحيل إليه مفهوم الفضاء السكني، لنعرج بالبحث
في أهمية هذا الفضاء، كفضاء يتعدى حضوره المادي إلى الاجتماعي والثقافي والرمزي، بما
يتضمنه ويوفره من حميمية وأمن وتحقيق الذات والراحة وغيرها، وفي الأخير كان الوقوف
عند أنواع الفضاءات السكنية بنمطها العمودي والأفقي، لنتتهي بالبحث عند تنظيم الفضاء
السكني الذي يتوافق والمجتمعات وثقافتها ومحملها الرمزي والديني وتمثلاتها للحياة
والأشياء.

الكلمات المفتاحية: الساكن، الفضاء السكني، العلاقة، الحميمية، أنثروبولوجيا الرمز والمخيل.

Abstract:

From the perspective of the anthropology of symbolism and imagination, we have tried within the context of this research to address the duality of the inhabitant and the residential space, focusing on the question of the relationship between them. The housing as we inhabit and occupy it also inhabits and occupies us. Therefore, the relationship here is a matter of accommodation and intimacy, and in order to detail this relationship, we tried to approach the subject from five points of view. Firstly, we began by an attempt of an anthropological rooting of habitation and intimacy in terms of the symbolic and the met. Secondly, we determined the meaning of the concept of residential space. Thirdly, we focused on the importance of this space as space exceeds its material existence to the social, cultural and symbolic one, through its content and what its implications like intimacy, security, self-realization and rest etc. finally, we discussed the types of residential spaces in its both patterns horizontal and vertical one, and we finished by seeking the organization of the residential space which corresponds to communities, their culture, symbolic and religious content and their representations of life and things.

Keywords: Inhabitant, residential space, relationship, intimacy, anthropology of symbol and imagination.



- تمهيد:

في البدء يقول جيلبير دوران (G. Durand) في كتابه: « Les structures anthropologiques de l'imaginaire » « قل لي ما هو المنزل الذي تتخيله أقل لك من أنت ».

قبل الغوص في التحليل الرمزي لهذا القول، فإن الفضاء السكني هو من الأولويات والحاجات الأساسية للإنسان، وعنصرها ما يحدد نوع الحياة ويوفر مختلف الإمكانيات والتسهيلات، التي تضيف على الحياة الاجتماعية الراحة والسلامة والأمن، كما يعطي لسكانيه مكانة اجتماعية، فهو إذن ليس بالمجال الذي يحمي الإنسان من

أخطار الطبيعة فقط - يقي الفرد من العواصف والأمطار والثلج والشمس-، بل إنه أكثر من ذلك يوفر لساكنيه الراحة النفسية والجسدية، فهو يحفظ الأشياء السرية وخصوصية العائلة والفرد. ومن خلاله يشعر الفرد بإنسانيته وكرامته، يضاف إلى ذلك أن المسكن هو المكان الوحيد الذي يحقق فيه الساكن استقلاليته وحياته الشخصية بدون قيود، ويجسد فيه هويته وتصورات، وبطبيعة الحال هو ليس وحدة سكنية جامدة بل في حالة ديناميكية دائمة، يتغير حسب احتياجات ساكنيه، ولا يوصف على أنه حيطان صماء. وبالتالي فكل ركن فيه يحمل تصورات معينة، مما يفسر أن الفضاءات السكنية لا تنظم بنفس الطريقة.

وبقدر ما يؤثر الإطار المادي على سلوك وتصرفات الساكنين يؤثر الأفراد والجماعات بدورهم على محيطهم السكني فيشكلونه ويطوعونه ويخضعونه لرغباتهم ومتطلباتهم، ففي داخل البيئة السكنية ينشأ الأطفال وتترعرع الصداقات وتتمو العلاقات وتزدهر، وتثور الخلافات والصراعات والضغائن وينمو الشعور بالانتماء والاندماج الاجتماعيين.

عموما كل هذا سنحاول مقارنته أنثروبولوجيا وسنركز بالخصوص على أهمية الفضاء السكني في حياة الأفراد، مع التطرق إلى العلاقة التي تتسج بين الساكن وفضائه السكني في تنظيم وإعادة تنظيم هذا الفضاء.

أولاً: المسكن والحميمية في أنثروبولوجيا الرمز والمخيل:

المسكن هو المدفن وهو بطن الأم، وقبر الحياة بالتعبير الشعبي العام، ومنه فمخاليا ورمزيا نحن نتحدث في تصنيف وتوصيف البيت/ المسكن عن نوع من المحاكاة للمسكن بالمدفن وبيطن الأم وبالقبر، وكلها في النهاية مجالات فيزيولوجية ورمزية ومخيلية تحمل وتسبق نوع من الدلالة للاحتواء والحميمية، فالمغارة والكهف والخيمة والنوالة والمنزل هي في النهاية خلاصات لبني ذهنية وفيزيقية لمعنى المسكن والاحتواء، لمعنى المخبأ والمخزن، يقول في هذا السياق دوران Durand Gilbert "المسكن على ارتباط وثيق بالمدفن الأمومي، سواء تحول المدفن إلى مغارة أو بني على شكل مسكن..."¹.

والمدفن الأمومي هنا يعبر عن عالم داخل الرحم يحاكي مخياليا ورمزيا صورة الكهف المظلم والرطب، هذا الأخير كان مسكنا منذ البدء، وكان يثير في الانسان تخيلات عميقة² ورغم أن الكهف والمغارة أشمل من حيث الرمزية والحميمية عن المنزل، لكن رغم ذلك فإن الأثنروبولوجية الرمزية وأثنروبولوجيا المخيال تعدد في ذلك فروقات بسيطة من حيث الحميمية بين المغارة والمسكن، فهذا الأخير "ما هو في الغالب إلا كهفاً تَغَوَّ موضعهُ، وفي الواقع فإن كل مسكن، حتى وإن لم يكن له أسس مادية، يتأصل في الكهف، في التجويف الأساسي"³.

من ناحية أخرى ولكن داما في سياق الرمزية يحاكي كلوديل P. Cludel ويمائل بين رحم الأم والقبر والتجويف بشكل عام والمسكن المسقوف، ولذلك لا نستغرب عندما يؤنث المخيال الاجتماعي واللسان المسكن، بصيغة الدار-أنثى، وهنا يمكن العودة للتدليل والبحث أكثر إلى أهمية ودور التحليل النفسي مع سيقموند فرويد S. Freud وأتباعه ممن بحثوا وركزوا جيدا في الدلالة الأنثوية للمسكن بمختلف أشكاله، حيث انتهى فرويد Freud إلى أن أغلب المرضى الذين شملهم بالبحث كانوا يُؤنثون مساكنهم، الغرفة والكوخ، القصر والمعبد والصومعة وغيرها من الأشياء⁴.

عموما بالعودة إلى أثنروبولوجيا المخيال والرمز خصوصا مع جيلبير دوران G. Durand نجد تلك المخيلة التي تموضع المنزل بين عالم الجسم البشري الحسي والكون الكبير والمجرد، حيث تصفه (المنزل) كعالم مصغر وثنوي وكمنطقة وسطى بينهما، تهيمن بتمثالاتها وتصوراتها وشكلها وموقعها في التشخيص النفسي والاجتماعي، ولذلك دوران Durand - كما سلف الذكر - "قل ما هو المنزل الذي تتخيله، أقل لك من أنت"، بمعنى أن رمزية البيت وتخيله هو وجه آخر للجسد الحسي وللخلفية الفكرية للإنسان المتخيل⁵.

من ناحية أخرى، تحاكي الأثنروبولوجية الرمزية مع بودوين Ch Baudouin بين غرف المنزل وصورة الأعضاء، كما تجعل من النوافذ عيون البيت عند الطفل، الذي يستشعر وجود الأحشاء في القبو والممرات بالبيت، ويدُ قَدَم من جهته

ريلكه Rilke تشبيه رمزي بليغ حيث يرى أن هبوط سلام البيت كهبوط الدم في العروق، وبالعموم المنزل كما يصفه دوران Durand هو "مناهة مطمئنة ومحبوبة بالرغم مما تثيره أسراره من رهبة خفيفة"، ولذلك ربط بين المسكن والجسد والكون، واعتبر أن تنسيق الغرف وأجزاء المنزل من خلال مكان النوم ومكان تحضير الطعام ومكان الأكل ومكان الاستراحة والاستقبال والمؤونة، كل هذه العناصر المجزئة والمصنفة تستدعي مخيالها ورمزيا مثيلاتها التشريحية أكثر مما قد تثير تخيلات معمارية⁶.

من كل ما سبق، تنتهي الأنثروبولوجية الرمزية إلى التأكيد على أن المسكن/المنزل بكامله هو أكثر من مكان للسكن، إنه كائن حي بمعناه الرمزي (حي بساكنيه)، فهو يضاعف ويحدد شخصية ساكنه، وهنا نفق عند معنى الحميمية التي يوفرها ونعيشها بالمسكن ويعيشها فينا، فروائح المنزل هي التي تنتج الاحساس بالوجود الحميم، كما أن رواح الطعام في المطبخ وعبور غرفة النوم، وعبوة الممرات وأزيج المسك والكافور الذي يفوح من خزانة الأم، كل هذا يشعر وزيد حجم ومبلغ وغبق الحميمية بين ساكنة البيت⁷.

من جهته يعود بودوين Ch. Baudouin ليؤكد أن حميمية هذا العالم المصغر (المسكن) يمكن أن تضاعف وأن تقترن بغيرها حسب الرغبة، فالمسكن كالجسد، يمكن أن يصبح مماثلاً للعيش أو القوقعة أو جزء الصوف أو حضن الأم، غير أن باشلار Bechelard يتعدى هذا الوصف ليؤكد على حاجة الانسان إلى مسكن صغير داخل المنزل، لكي يستعيد كما يقول "طمأنينة الحياة الأولى الخالية من الهموم"، هذا الدور يلعبه الركن، الزاوية الحميمية والغرفة الخاصة والهادئة والخلوة التي هي المعنى والمكان الأسمى والمثالي لتحقيق هذه الحميمية والطمأنينة، التي لا تتوافر محاكاتها ومخيالها بعد ذلك إلا في مكان مغلق ومعتم بين أحشاء الأم⁸.

لتأكيد الحميمية أكثر في المسكن يعود بنا باشلار Bechelard إلى رمزية مساهمة الأقفال والمفاتيح في زيادة هذه الحميمية، باعتبار أن هذه الأخيرة (المفاتيح)

تحيل مخياليا ورمزيا وواقعا إلى نوع من المشكلة، فهي حاجز معدني لا يمكن اختراقه ومدافعة⁹.

بالعموم ما يمكن أن قوله من زاوية الأنثروبولوجية الرمزية هو أن البيت يشكل صورة الحميمية المريحة، وهو مغلف بأنموذجات هاته الحميمية، كيفما كان شكله أو قيمته أو موقعه (قصرًا أو كوخًا)، وهو المكان المليء بمعاني التوقف والهدوء والراحة والسكينة، هذا الوصف دفع مينكوفسكي Minkouphsci في حديثه عن الدور المزدوج الذي يمكن أن يلعبه البناء القابل للسكن إلى القول: "البيت هو بناء... ولكنه مسكن أيضا، وهناك توجهان رمزيان ممكنان بخصوصه، فالبيت بالنسبة لبعض يجب أن يكون قد شُيد قبل أن يصبح مسكنا بالصدفة، وهو في نظر البعض الآخر يشكل مسكنا منذ البداية... هؤلاء لا يجزئونه إلى عناصر عقلية وأخرى عاطفية... فالكوخ أقرب إليهم من ناظحة السحاب"¹⁰.

من كل هذا تقدم لنا أنثروبولوجيا الرمز والمخيل أن البيت ليس جدارا أو واجهة أو قبة ولا هو مبنى، بل هو المسكن، الذي لا يظهر في الهندسة المعمارية سوى مجرد جدران أو زخرفة أو برج، ولذلك فإن البيت هو أكثر من كل هذا عند الأنثروبولوجيين، إنه الكون الصغير المليء برموز الحميمية، وهو في أسمى أوصافه المكان المقدس¹¹، الذي يقتضي طقوسا للعبور إلى عالمه وحميميته، ولذلك صورت العتبة كحد فاصلا بين المدنس والمقدس، ولأجل تحقيق ذلك حمل المخيال الشعبي العربي ممارسة العديد من الطقوس المتعلقة بالمسكن والسكن، ومن ذلك تقديم الأضحية في حالة السكن الجديد لسيد المكان، كما أن توسعة المنزل تستوجب عند الانسان العربي ذبيحة جديدة تكريما لساكني الأرواح الجنية التي تملكها وحدها¹².

إذن، مخيال الانسان العربي يحمل حسب يوسف شلحت نوع من التخوف من استعمال الأشياء الجديدة، والأضحية في ذلك توظف استعماليا ورمزيا لإزالة تلك العقبة، ولكن أيضا لعقد نوع من الحلف مع مالك المسكن المؤنث شعبيا (مولات العتبة) واتقاء شره وانتقامه¹³، كما أوجد ومارس الانسان الشعبي العربي طقوسا أخرى لمجابهة ما يوصم بالعين واتقاء شرها.

ثانيا: مفهوم الفضاء السكني

قبل التطرق إلى مفهوم الفضاء السكني ارتأينا من الضروري توضيح مفهوم الفضاء، الذي يحمل في مضمونه معان كثيرة ومرادفات متعددة، فهو المكان، المجال، الحيز.... وإن الفضاء كل شيء ولا شيء في آن واحد على حد تعبير لودريت ريمون R. Ledrut ؛ حيث يقول: "الفضاء إن شأنا كل شيء ولا شيء في نفس الوقت، أو بتعبير آخر شيء قليل وشيء كثير معا. وهذه المفارقة تجد تفسيرها بوضوح في كون جميع الكائنات في علاقة مجالية محضة (...).

إن هذا الفضاء الذي يبدو كاشيء يصبح كل شيء تقريبا لأنه من طبيعة وجودية ولأننا نعثر عليه في كل الأنحاء (...). وكلما تحدثنا عن الفضاء أو المجال إلا ونجد أنفسنا نتحدث عن الوجود وعن علاقات التواجد أي في نهاية الأمر عن الوجود¹⁴، وهذا تفسير واضح عن أهمية الفضاء في حياتنا لأنه متواجد فيها باستمرار، كما لا يمكن أن يدرس الفضاء بمعزل عن البنية الاجتماعية، فقد نفى كاستل M. Castells "وجود نظرية للفضاء دون أن تكون هذه الأخيرة جزءا مندمجا ضمن نظرية اجتماعية شاملة"¹⁵، بمعنى لا يمكن النظر إلى الفضاء على أنه إنتاج مادي بمعزل عن العناصر الاجتماعية والمعنوية التي تدخل في تكوينه، كما أن الفضاء لا يوجد "إلا بما يحويه (...). فهو بناء منظم بما يتضمنه: أحداث، وأشخاص، وأفعال، واتصالات، وتعارف، وأشياء..."¹⁶، فكل هذه مجتمعة تشكل لنا الفضاء..

ومنه الفضاء ظاهرة اجتماعية كلية تضم مختلف العناصر، والعلاقات، البيئية، وضعية الكائنات وحريتهم، ممارساتهم اليومية وعاداتهم وغيرها.

إن الفضاء هو إنتاج جماعي وجزء من الحياة الاجتماعية وهو يتجلى "كنموذج إبراز أو تعبير عن المجتمع (...). والعلاقة بالفضاء تحافظ على خصوصية الهويات"¹⁷، مما يظهر أهمية ودور الممارسات الاجتماعية داخله، وإن دراسة الفضاء "الذي يحمل علاقة الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي سواء تعلق الأمر في ذلك بالجوانب البيوفيزيولوجية التي تنظم علاقة الجنسين (...). أو علاقات الإنتاج

وإعادة الإنتاج المتعلقة بتقسيمات العمل وتنظيماته فهو إذن -أي المجال- ذو وظائف اجتماعية مترابطة¹⁸، فما يحمله الفضاء من عناصر وعلاقات ووضعيات وممارسات تشرح هذه العلاقات ووظائفها، ويعبر الفضاء على كل ما يخص الحياة اليومية ويرتبط معها. وتختلف الممارسات حسب الفضاء: "ممارسات تكون مشروعة في فضاء معين قد لا تكون كذلك في فضاء آخر"¹⁹، وعليه تختلف الممارسات فيما إذا كان الفضاء حميمي خاص أو عمومي.

ومن الفضاءات الحميمية الفضاء السكني، يعرف عموماً على أنه المسكن أو البناء أو العمران، وهو عبارة عن وجود مادي لما يحتويه من أبواب، نوافذ وجدران..... إذن المسكن يشير في البداية إلى الإطار المادي الذي يشبع فيه الإنسان احتياجاته المادية والروحية، والعاطفية والثقافية... ويقضي فيه معظم أوقاته، والمسكن كما يراه رابوير A. Rapoport. علبة وظيفتها الرئيسية هي إيواء وحماية ساكنيها ومحتواها²⁰، وحسب عبد القادر القصير الفضاء السكني هو "البناء الذي يأوي إليه الإنسان ويشتمل هذا البناء على الضروريات، التسهيلات، التجهيزات، الأدوات والأجهزة التي يحتاجها أو يرغب فيها الفرد لضمان تحقيق الصحة الطبيعية والعقلية والسعادة الاجتماعية له ولأسرته"²¹، فهو إذن المجال الذي يحقق لساكنيه الراحة البدنية، والنفسية، والعقلية، لما يتضمنه من تجهيزات لتحقيق ذلك.

ثالثاً: أهمية الفضاء السكني

إن المسكن "لا يعد وحدة نسكنها فحسب، إنه موضوع في فضاء محدد لا يمكن أن نتجرد منه. فقيمه الاقتصادية، والعاطفية، والرمزية تابعة لموضعه ومحيطه"²²، من هنا يعتبر غاستون باشلار G. Bachelard. المسكن "زاويتنا وركننا من العالم وهو عالمنا الأول وفضائنا"²³، لأنه المكان الوحيد الذي يعتبره الإنسان ملكه، يتصرف داخله بكل حرية، وقد عبر عنه أيضاً بأنه حامي القيم والحميمية يترك فيه الإنسان الذكريات والأحلام التي تربط بداخلية قيم فردية خاصة، واعتبره شيئاً حياً له خصوصية وصفات هندسية تصمم ملامح الألفة فقال: "البيت

جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول²⁴، بالنسبة له المسكن ليس صفات هندسية بل ملامح للألفة الاجتماعية، وهو مجال الأمانى والتخيلات والأحلام.

وينعت شومبار دولو P.H. Chombart de lauwe المسكن بوجود اجتماعي وثقافي بارز "تعمل المجموعة التي تسكنه على توفير أحسن حماية له من العالم الخارجي، فتجعل منه محمية"²⁵، أي تقوم على توفير سلسلة معقدة للحماية سواء كانت مادية أو رمزية؛ تتمثل المادية منها في ترصيص الأبواب والنوافذ، فتضاف للأبواب أبواب أخرى حديدية، وإلى النوافذ الشبابيك الحديدية؛ أما الرمزية فهي كل الرموز المستخدمة خاصة لحماية المسكن وساكنيه من العين والحسد. ومنه يبرز "كل مسكن على أنه فضاء مزدوج: من جهة هو فضاء مغلق، ثابت، دائم، مركزي ومخصص للحفاظ؛ ومن جهة أخرى هو فضاء مفتوح، غير ثابت، زائل، خارجي ومبدع أو مدمر"²⁶ هذه الازدواجية تعبر عن الداخل والخارج للفضاء السكني، فهو مغلق يحمي أصحابه ويحفظ خصوصيتهم، كما يعد مجال لخلق الروابط الاجتماعية وربط بين الفرد ومحيطه الخارجي.

كما يعد المسكن "فضاء للحرية على عكس الفضاء الحضري"²⁷، إذ يترجم الساكن داخله آماله ورغباته، ولا ينظر لوفيفر H. Lefebvre إلى السكن "بوجهه المادي وأنماطه، بل يغطي أيضا المحيط الاجتماعي والمنكون من الممارسات والعلاقات والتمثلات"²⁸، فالفضاء المادي يعبر عن فضاء اجتماعي، وشكل المسكن وترتيبه يفسران هوية الساكن قبل كل شيء، فكيفية استخدام الفضاءات السكنية تلخصها بوشانين F. N. Bouchanine في العلاقة الموجودة بين المعايير والفضاء. ومنه الفضاء السكني تعبير اجتماعي، وهو شكل تنظيمي توظيفي من طرف السكان، إذ هو نتيجة لتمثلاتهم، فهو عبارة عن مؤسسة مشكلة من مجموعة من التصورات ومخيال لا بنية وشكل فقط.

إنّ الفضاء السكني ليس عملية ممارسة لوظيفة عضوية فقط، وإنما هو عنصر أساسي لارتباط العائلة والفرد مع الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه، ويعد "الفضاء السكني نسقا للاتصال"²⁹ بمعنى أنه مجال للعلاقات الاجتماعية، وكما

يعبر عليه أيضا وفي نفس المنحى قرافمير Y. Grafmeyer على أنه "مكان في غاية الخصوصية وهو ملتقى العلاقات الاجتماعية"³⁰.

إنّ الفضاء السكني عبارة عن بناء يجسد الحياة الاجتماعية واليومية للأفراد، وهو بمثابة تفاعل يدخل ضمن تمثيلات للحياة الاجتماعية، وأوضح ديسبريس Despres من خلال دراسة التي قام بها في مدينة شيكاغو، مفهوم المسكن في عدة خصائص، أهمها:³¹

- الموضع الذي نشعر فيه بالأمن الجسدي.
- المكان الذي نستطيع فيه الفرد أن يعمل ما يشاء وأن يحقق ذاته.
- المكان الذي نشعر فيه بالراحة عند استضافة الناس.
- الملجأ الذي نستطيع أن نبتعد فيه عن الضغوط الخارجية، وأن نحصل فيه على السلام والسكون والبقاء بمفردنا عندما نرغب في ذلك.
- المكان الذي يتوفر فيه الفضاء المناسب والغرف لتحقيق الحاجات اليومية للفرد.
- المكان الذي نستطيع فيه إحداث التغييرات وإضفاء الصبغة الشخصية عليه.
- موضع الحب والمبادلة، أين نتمكن من توطيد العلاقات مع الأشخاص المهمين بالنسبة لنا.
- المكان الذي نشعر فيه بالألفة مع فضاءاته، رائحته، أثاثه وأشياءه.
- المكان الذي يمنحنا الشعور فيه بالانتماء ووجود أصل لنا.
- مكان شخصي.
- الاستثمار الذي يمكننا الحصول بواسطته على المال.
- المكان الذي يبين للناس مكانتنا في المجتمع.

وفي كل الأحوال لا يمكن اعتبار المسكن فضاء جغرافي جامد، ولكنه في الواقع مرفق حيوي يحدد الكثير من الاشباعات، فضلا على أنه نظام ثقافي واجتماعي قائم على مجموعة العلامات والدلالات، ويقوم بمجموعة من الوظائف: يحفظ خصوصية

الأفراد، ويؤمن لهم الحماية والاستقلالية والطمأنينة، والأكثر هو مجال للتفاعلات والتبادلات الاجتماعية.

وباعتبار أن الفضاء المجاور للفضاء السكني مجال هام لخلق التفاعلات والتبادلات الاجتماعية، إذ تلعب النوافذ والأبواب دورا لا يستهان به في خلق فرص للتفاعل بين الجيران، فضلا عن مداخل العمارات، وقد تطرق ديبول J.C. Depaule إلى ذلك بقوله: "إن عتبات المسكن، نوافذه، أبوابه، موقعه، كلها نقاط مهمة بواسطتها تتكون علاقات الساكن بالآخرين"³²، وأشار ايفون B. Yvonne إلى ذلك أيضا، معتبرا أن النوافذ والأبواب تسمح في خلق التواصل الاجتماعي³³ لأنها مفتوحة على الخارج؛ نفس الطرح نجده في دراسة مصطفى قناوي³⁴ مؤكدا على دور الفضاءات الوسيطة (intermédiaire) في تنمية التواصل والتبادل.

كما تعد عتبة الفضاء السكني بوصفها مكان انتقالي أو عبور من الفضاء العام الخارجي (فضاء مدنس) إلى الفضاء الخاص الداخلي (فضاء مقدس)، ما يقتضي طقوسا معينة تحقق هذا الانتقال عند بداية السكن داخل الفضاء السكني، وهي ما تسمى طقوس العبور التي طرحها أرنولد فان جنيب A. V. Genep³⁵، هذه الطقوس مصاحبة لكل تحول في المكان أو في الوضعية الاجتماعية أو غيرها من التحولات في حياة الفرد، فالساكن الجديد يخضع إلى أفعال من أزمدة ثلاث: الانفصال، الانطلاق والإلحاق، وبين الفصل والإلحاق تتمركز مرحلة وسطى تشكل نوع من منطقة حرة تمارس فيها مختلف الممارسات تحمل رموز ودلالات معينة³⁶، من أجل تحسين وحماية الفضاء السكني من كل أنظار الغرباء، ومن الطقوس الهامة عند السكن - كما سبق الذكر - ذبح حيوان كأضحية تقريبية، وكذا لحفظ السكن من العين والحسد، وبدم الأضحية تثبت "خامسة" عند مدخل المسكن³⁷.

هذه العتبات وبوصفها فضاء عبوري تعتبر مركز تواصل اجتماعي بين الأفراد، فهي المجال المفضل للالتقاء بين النساء خاصة، وتعتبر نقطة التقاء وتجاذب أطراف الحديث والآراء وطرح مختلف الانشغالات والمشاكل اليومية التي قد تصادف الأسرة.

رابعاً: أنواع الفضاءات السكنية

تختلف الفضاءات السكنية من نمط معماري لآخر، ويمكن التمييز بين نمطين أساسيين، وهما:

1- نمط الفردي: نمط أفقي horizontale

يعرف النمط الفردي على أنه نمط سكني تقليدي، فهو مجموع من السكنات المتلاصقة مصطفة في خط مستقيم، هذه السكنات تدور حول فناء مفتوح تمارس فيه مختلف الأنشطة المنزلية، ومكان يلهو فيه الأطفال كما يعتبر مجال لاستقبال الضيوف الأعداء³⁸.

ويساعد السطح المتفتح على الخارج على التلاقي بين الجيران وخاصة فئة النسوة، أين يتبادلون الحوار وحتى المأكولات. تطل هذه المساكن على شارع متسع، وتلعب الشوارع بالنسبة لهذا الفضاء السكني دور شرايين الاتصال.



الصورة رقم (1,2) تبين النمط السكني الفردي الأفقي

2- نمط جماعي: نمط عمودي Vertical

يقصد به الشقق السكنية بالعمارات.



الصورة رقم (3،4): تبين الفضاءات السكنية الجماعية (نمط عمودي)

خامسا: تنظيم الفضاء السكني

إن تنظيم الفضاء ظاهرة اجتماعية، لا يمكن التقرب منها وفهمها إلا بالرجوع المباشر إلى الظواهر الاجتماعية الأخرى، يقول الباحث الجزائري حجيج: "دراسة الفضاء معناه إبراز التفاعلات القائمة بين الفضاء والمجتمع. وفي المرحلة الأولى يجب فهم العمليات التي تحدث أو التي حدثت حتى يتم بموجبها انجاز الفضاء، ثم في مرحلة ثانية يجب ملاحظة وتسجيل آثار هذا الفضاء على المجتمع ككل"³⁹. وتكتسي مسألة تنظيم المسكن وترتيبه وتأثيره أهمية كبرى، لأن الممارسات داخل الفضاء السكني تترجم النماذج الثقافية، فتقسيم الفضاء السكني بين مجال للرجال وآخر للنساء وللأطفال، مجال مخصص للنوم وآخر للجلوس، فضاء مكشوف وآخر مستور... ناتج عن تمثلات الساكن نفسه.

ويربط رابوير A. Rapoport⁴⁰ بين الشكل المبني للمسكن وطريقة العيش، أي بين الشكل والسلوك، ويعبر عن الفضاء السكني بأنه مؤسسة تحوي تنظيما اجتماعية لا هو عبارة عن بنية وشكل فقط، يحقق داخله الساكن مجموعة من الحاجات الأساسية والحميمية والاجتماعية المرتبطة بالنسق القيمي والعادات والتمثلات الاجتماعية.

من هذا المنطلق ركز **رفعة الجادرجي**⁴¹ على هذه الجدلية بين الشكل والسلوك وتساءل قائلاً: هل أن المحتوى يولد الشكل، أم أن الشكل هو الذي يولد المحتوى وخلص هذا الباحث إلى أن الشكل هو التكوين الهندسي الذي يظهر لنا المحتوى والذي يعتمد عليه ويكمن فيه، فكل منهما يؤثر في الآخر، فترتبط تفاصيل المسكن وحاجاته بنظرة الأفراد لواقعهم ولعملية انتمائهم الاجتماعي وعالمهم الثقافي.

إن تنظيم المسكن على العموم مرتبط بالحرمة كما أشار **إبراهيم بن يوسف** في دراسته للمجتمع المزابي⁴² وبرز في طرح **سليمان بومدين** في مقاله عن تصورات المغاربي لحرمة داره⁴³، وعلى هذا النهج ترى **بوشانين** F. N. Bouchanine⁴⁴ أن الفضاء السكني ينقسم إلى مجالين الأول مرئي (visible) يضم قاعة الضيوف أو "الصالة" أو كما يسمى عند البعض "بيت الضياف"، وهو مخصص لضيوف الأسرة كالأهل، الأحباب، الأصدقاء والجيران. أما المجال الثاني غير مرئي (non visible) وهو مخصص للمرأة تتحرك فيه بكل حرية ويمنع على الرجال الأجانب دخوله احتراماً له ولمكانة المرأة، وللحفاظ على حرمة المسكن، ويضم هذا المجال المطبخ وغرف النوم. فهذا التقسيم بين فضاء للاستقبال وآخر حميمي خاص بأفراد الأسرة، ضروري وموجود لدى غالبية الأسر الجزائرية والعربية ويؤكد الحفاظ على الحميمة في الحياة العائلية، وإن الدين يؤثر في تصميم وتنظيم الفضاء، وفي تحديد مكوناته وفي شكله الرمزي، ليتجسد ذلك في الأثاث والألوان وتموضعها. كما أن المساحة السكنية داخل الفضاء السكني تحدد تقسيمات المجال والحدود المكانية لأصحاب الفضاء وكذا للغرباء (الزوار).

- خلاصة

في ختام الموضوع فإن ما يمكن التأكيد عليه هو أن مقاربتنا للمسكن من زاوية أنثروبولوجيا الرمز والمخيال هو محاولة منا لموضعه بين هذين الشقين، واعتباراً لأن المسكن في أصله مغلف بعناصر الرمز والخيال، ولذلك كان لابد لنا ضمن حيثيات هذا البحث الكشف عن موضعه الرمزية والمخيلية.

في هذا السياق وضعت أنثروبولوجيا الرمز المسكن بين عالمي الجسم البشري الحسي والكون الكبير والمجرد، فالمسكن والبيت هو في النهاية من زاوية الرمز عالم مصغر، وهو الوجه الآخر للجسد الحسي، ولذلك عادة ما يعرف ويفهم معناه في سياق ربطه بالجسدي والكوني وبالمتاهة المطمئنة في مقابل الرهبة المخيفة.

في نفس الوقت تخلص أنثروبولوجيا الرمز والمخيال إلى التأكيد على إعتبارية المنزل ككائن حي، وهذا يحيل في معناه إلى نوع من السمو الرمزي والمخيالي والعرفاني بالمسكن، ونقله من عالم السكون والجماد إلى عالم الحركة والديناميكا والحميمية.

في الأخير، ما يمكن التأكيد عليه هو أن بمثل ما للفضاء السكني من محمول وقيمة رمزية ومخيلية للإنسان، فإنه أيضا ذا أهمية كبيرة اجتماعيا ونفسيا سواء له كفرد أو كجماعة اجتماعية، فهو يوطد علاقة الفرد بمجتمعه ويحقق انتماؤه واندماجه داخله.

في النهاية انتهينا بالبحث إلى محاولة كشف دلالات الفضاء السكني باعتباره هندسة تبلور مختلف تمثلات وتصورات الأفراد، كما يتحدد إنتاج الممارسات على الوضع الذي يحتله الفاعل في فضائه وأيضا على المجال الذي تتم فيه هذه الممارسات.

– هوامش البحث:

1. دوران جيلبير، الأنثروبولوجيا: رموزها، أساطيرها، أنساقها، ت. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2006، ص 219.
2. نفس المرجع، ص 220، 227.
3. دوران جيلبير، نفس المرجع السابق، ص 220.
4. Freud. S, Introduction à la Psychanalyse, Payot, 1947, pp 169– 176.
5. دوران جيلبير، نفس المرجع، ص 221.
6. دوران جيلبير، نفس المرجع، ص 221.
7. دوران جيلبير، نفس المرجع السابق، ص 221.

8. نفس المرجع، ص 222.
9. نفس المرجع، ص 222.
10. دوران جيلبير، نفس المرجع السابق، ص 222.
11. نفس المرجع، ص 223.
12. نفس المرجع، ص 223-224.
13. شلحت يوسف، الأضحاحي عند العرب، ت. خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص 115-116.
14. شلحت يوسف، بنى المقدس عند العرب قبل الاسلام وبعده، ت. خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2، 2004، ص 141.
15. شلحت يوسف، الأضحاحي عند العرب، نفس المرجع، ص 115-116.
16. LEDRUT. R, La forme et le sens dans la société, Ed Librairie des Méridiens, Paris, 1984, P. P.107-112
17. CASTELLS M., La question urbaine, Ed François Maspero, Paris, 1981, P. 475.
18. MOLES A.- ROHMER E., Psychosociologie de l'espace, L'Harmattan, Paris, 1998, P. 17.
19. BONTE P.- IZARD M., Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie, Puf, Paris, 1991, P. 235.
20. LEFEBVRE H., La production de l'espace, 4^e Ed Anthropos, Paris, 2000 , P. 41.
21. MARC E.- PICARD D., L'interaction sociale, Puf, Paris, 1989, P.123.
22. CF. RAPOPORT A., Pour une anthropologie de la maison, traduit par A. M. Meistersheim et M. Schlumberger, Bordas, Paris, 1972.
23. القصير عبد القادر، الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية (دراسة ميدانية في علم الاجتماع الحضري والأسري)، دار النهضة العربية، بيروت، 1999ص. 169.

24. SEGAUD M. et autres (sous-direction), Logement et l'habitat : l'état des savoirs, La découverte, Paris, 1998, P 6
25. BACHELARD G., La poétique de l'espace, Puf, Paris, 1981, P. 25.
26. باشلار غاستون، جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص. 38.
27. CHOMBART DE LAUWE P.H., Pour une sociologie des aspirations, Médiations, Paris, 1971, P. 114.
28. MASSABUAU J. P., La maison, Espace social, Puf, Paris, 1983., P. 51.
29. SEGAUD M., Anthropologie de l'espace : Habiter, Fonder, Distribuer, Transformer, 2^e Edition, Armand colin, Paris, 2010, P 216.
30. HADJIDJ D., « L'habiter : La spatialisation des modes de vie », In Revue des sciences sociales, N°17, Université de Constantine, (Janvier 2002), (P.P. 19-23)
31. RENIER A., Espace et représentations : Penser l'espace, Les éditions de la villette, Paris, 1982, P. 9.
32. GRAFMEYER. Y. « Logement, quartier, sociabilité », In : SEGAUD M. et autres (sous-direction), Logement et l'habitat : l'état des savoirs, op. cit, P. 347.
33. نقلا عن: سليمان جميلة، دراسات في علم النفس الاجتماعي الفضائي: الآليات النفسية والاجتماعية للمسكن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص. ص. 50-51.
34. DEPAULE.J.C., « Vie Quotidienne et espace habité au Machrek », In : Espace des autres : Lectures anthropologiques, Les éditions de la villette, Paris, 1987, P. 181.

35. YVONNE B., « Du logement au chez- soi », In : SEGAUD M. et autres (sous-direction), Logement et l'habitat : l'état des savoirs, op. cit, P. 375.
36. GUENAOU M., « La zenqa, espace entre le derb et l'extra hawma : le cas de la médina de Tlemcen », In : Remaoun H.-Henia A. (sous la direction), Les espaces publics au Maghreb, CRASC, Oran, 2013, (P.P. 167- 186)
37. Cf. GENNEP A. V., Les rites de passage, Emile Nourry, Paris, 1909.
38. للتوسع أكثر أنظر: صولة عماد، "سيرورة الرمز من العتبة إلى وسط الدار: قراءة أنثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي"، من: إنسانيات، العدد 28، أفريل - جوان 2005، (ص. ص. 5-22).
39. قد تأخذ الخامسة الموضوعه أمام عتبة المسكن -أو على باب المسكن الخارجي- أشكالاً مختلفة فهي إما يد مفتوحة مصنوعة من حديد أو نحاس، أو تكون يد على رخام، كما قد تتوسط هذه اليد رسم العين وتدور حول الأصابع رسم الأفعى لتشكل بهذا رمزا للحماية.
40. RAPOPORT A., Pour une anthropologie de la maison, traduit par A. M. Meistersheim et M. Schlumberger, Bordas, Paris, 1972, P.149.
41. HADJIDJ. D, « Urbanification et appropriation de l'espace Le cas de la ville d'ORAN », In Insaniyat, N° 16, CRASC, Oran, Janvier 2006, (P. P. 237- 243).
42. RAPOPORT A., op. cit
43. أنظر: الجادجي رفعة وآخرون، بحث في جدلية العمارة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1985.
44. Cf. BENYOUCEF B., Le M'zab : Espace et société, Ed. urbaine, Alger, Non daté.

45. أنظر: يومدين سليمان "تصورات المغاربي لحرمة داره" من: إنسانيات، عدد 37،

مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، جويلية- سبتمبر 2007،

(ص.ص. 49-66)

46. Cf. BOUCHANINE F.N., Habiter la ville marocaine, L'Harmattan, Paris, 1997.